11

الرهان على الرئاسة

كانت حلقة التسريب مجرد نتاج جانبي لأكثر قرارات بوش أهمية، وأكثر الموضوعات هيمنة على الساحة في واشنطن في الوقت الذي استلمتُ منصب السكرتير الصحفي للبيت الأبيض: ألا وهي الحرب على العراق. الكثير من مظاهر هذه الحرب سوف تؤثر في ما تبقى من الفترة الأولى لرئاسة بوش، وخصوصاً مع اقتراب يوم الانتخاب.

على امتداد النصف الثاني من سنة 2003، وصولاً إلى سنة 2004، حيث أضحى احتلال العراق أكثر إثارة للجدل، اكتشف الديمقراطيون مدخلاً للنيل من مصداقية بوش، وحكمه على الأشياء، بل حتى كفاءته. هل بالغ الرئيس وفريقه، أو حرّفوا التقارير الاستخباراتية حول أسلحة الدمار الشامل كي يضللوا الأمة عن سابق تصور وتصميم، ويجروها إلى الحرب؟ كيف للحرب التي شنت على العراق أن تكون جزءاً من الحرب ضد الإرهاب طالما أن العراق لم تكن له علاقة بأحداث الحادي عشر من أيلول، ولم تكن له أي صلة بالقاعدة؟ لماذا اندفع بوش باتجاه الحرب من دون أن تكون بحوزته أي خطة للانتصار في السلام؟ كيف أخطأت الإدارة في حساباتها بشأن قوة المتمردين بهذا الشكل الفاضح؟ فإما أن يكون بوش ومستشاروه قد قلبوا الحقائق (وفي هذه الحال، فإنهم أقل من أن يتصفوا بالصدق)، أو أن يكونوا أخفقوا في تبيان الحقيقة في الوقت الذي كانوا على عجلة من أمرهم لإسقاط صدام حسين (وفي هذه الحال، فإنهم أقل من أن يتصفوا بالأهلية).

في كلتا الحالين، بدا الرئيس هشاً. وقد شكّل هذا تغيراً حقيقياً من المرحلة التي أعقبت انتخابات الكونغرس النصفية عندما كان بوش يحلق عالياً في استطلاعات الرأي لدرجة أن العديد من الخبراء توقعوا أن عملية إعادة الانتخاب ستكون رحلة سهلة.

كانت وسائل الإعلام في واشنطن قد دبت فيها الحياة وعاد إليها الزخم والنشاط بسبب احتمال أن المنازلة السياسية ستكون ساخنة. ومع البدء في طرح تساؤلات حول

مصداقيــة الرئيس، والحرب التي تزداد وتيرة كلفتهــا، بالإضافة إلى موضوع الانتعاش الاقتصادي الذي ما زال ينتظر منه أن يؤدي إلى خلق وظائف جديدة، فقد بدأت شعبيته تتهــاوى، كمــا أن عدد الأمريكيين الذيــن لا ينظرون إليه بثقة يزداد مــع الأيام. وقد أثّر ذلــك بدوره في التغطيــة الإعلامية، وهو ما يحــدث عادة أثناء الحملــة الدائمة. عندما يكــون موقــع الرئيس عالياً في استطلاعات الــرأي، فإنه يصور من قبــل وسائل الإعلام علــى أنه مستأسد؛ وعندما يكون موقعه منخفضاً، أو يميل نحو الانخفاض، فإنه يتعرض للهجــوم مــن وسائل الإعلام. في حال جــورج دبليو بوش، كان لوسائــل الإعلام أكثر من حجــة لتغيير نبرتهــا تماشياً مع الرأي العــام. ولأن وسائل الإعــلام أخفقت في أن تكون مشككــة بمــا فيه الكفاية، أو جازمــة في المدة التي سبقت الحــرب، فإنها تبحث الآن عن وسيلــة لمعالجة هــذا التقصير عبر الوقــوف في وجه رئيس ذي وضع هشــ بطريقة فيها الكثير من العدوانية.

بقــي بوش، ومعه نحن، أعضاء فريقه واثقين. بقينــا محافظين على كبريائنا المتنمر الــذي انطلقنا به مــن البيت الأبيض، مدججــين بآلة حملة انتخابية هائلــة يقودها كارل روف الشهــير الذي لا يهاب شيئاً، وبقاعدة من الجمهوريــين المتلئين حيوية، وشبكة من المؤيديــن على امتداد البلاد من معلقين في قنوات الكبــل الإخبارية، والنقاد الصحفيين، ومضيفــي البرامج الحواريــة الإذاعية الذيــن كان بالإمكان الاعتماد عليهــم للدفاع عن الرئيســ. أجرينا كل الحسابــات السياسية ضمن سياق إستراتيجيــة الحملة الإجمالية، والتــي كانت محسوبة بطريقة تضمن فيها أن موضــوع الأمن القومي - خصوصاً الحرب على الإرهاب، وهي نقطة القوة عند بوش - سيبقى محور المناظرات العلنية.

أكثر من ذلك، فحتى عندما كانت شعبية بوش الشخصية تتراجع، تذَكّر بوش وأعضاء فريقه المثل القديم القائل: «ليس بإمكانك أن تهزم شخصاً موجوداً باستخدامك شخصاً غير موجود». كان بوش ما يزال «موجوداً»، وكان ما يزال «شخصاً» ذا حضور هائل، بينما لم يكــن الديمقراطيون قــد اتفقوا بعد على مرشح لانتخابات سنــة 2004 - أي «شخص موجــود» له نقاط ضعفه وهشاشته الخاصة بــه. حالما تمت تسمية المنافس الديمقراطي، بــدأ كارل روف بتوجيــه هجومه عليه، مجريــاً مقارنات مناسبة للرئيســ، وغير مناسبة

للمتحدي. وكما تبين للجميع حينها، فإن أحداً لم يكن باستطاعته القيام بأفضل مما قام به روف.

علـى الرئيس أن يتخذ موقفاً متصلباً بشـأن الحرب على العراق. ولن يكون هناك أي تراجع من قبله حول فكرة ضرورة الحرب. لن يكون هناك أي تخمين ثانٍ حول الحرب في العراق. لن تكون هناك أي شكوك بشأن النتيجة النهائية للحرب.

لم يعـد لمسألتيّ تغيير نبرة الخطاب وإنهـاء الحرب الحزبية في واشنطن أي أهمية أو اعتبـار. لقد حان الوقت بالنسبـة للمنافس بوش الذي تحركه الدوافع السياسية كي يقف بثبـات، ويوضح بما لا يقبـل الشك الخيار الذي يواجهه الشعـب الأمريكي في الانتخابات القادمة. فرئاسته كانت على المحك، وإرثه كان في خطر. ولهذا فهو سيراهن على كل هذا بما يجري في العراق.

عنـد العودة بالذاكرة إلى هـذه المسألة، يمكن القول إن تلك كانـت الحقبة الحاسمة بالنسبة لرئاسة بوش. وكشفت الكثير عن شخصيته قائداً.

كنـت بصفتي السكرتـير الصحفي أشـارك بانتظـام في معظم اجتماعـات الرئيس الأساسيـة: مثـل المداولات حول السياسـة المتبعة، والتواصل مـع الكونغرس، واجتماعات الحكومـة، وزيارات رؤساء الدول. وكموالٍ من ولاية تكساس، كنت عضواً موثوقاً في فريق كبـار مستشاري الرئيس، وكنت غالباً ما أجتمع به مع مجموعة منتقاة من أقرب المقربين ومن بينهم كارد، وروف، ورايس، وبارتليت.

كانـت اللقـاءات مع رؤسـاء الدول تضـم عادة وفـوداً صغيرة الحجـم، متساوية في العـدد وتمثل كلاً من الفريقـين. كان وفد الرئيس يتكون عادة مـن السفير الأمريكي في الدولـة المعنية، ومستشار الأمن القومي، ووزيـر الخارجية (أو أحد نوابه أو مساعديه)، ومديـر مجلس الأمن القومي للمنطقة التـي أتى منها الوفد الضيف، ورئيس أركان نائب الرئيس، أو المسؤول عن الأمن القومي في المنطقة (إذا لم يكن تشيني نفسه)، والسكرتير

الصحفـي. كان وزير الدفـاع يحضر أحيانـاً، أيضاً. في المكتب البيضـاوي، كان كل من الرئيـس وضيفه الأجنبي يجلس على كرسي موشى باللونين الأزرق الفاتح والذهبي قرب المدفـأة. كان وفدنـا يجلس في العـادة إلى اليسار من بوش، وعادة مـا يكون ثلاثة منهم يجلسـون على أريكة واحدة، ويلي ذلك اثنـان أو ثلاثة يجلسون على كراسي. وكان الوفد الضيف يجلس في الطرف المقابل من الغرفة بالترتيب نفسه.

كانـت رؤيـة بوش الإستراتيجية بشـأن تغيير الشـرق الأوسط عبر إقامـة عراق حر وديمقراطي واحدة من الموضوعات التي أكد عليها في كل لقاء له مع رؤساء الدول. وكانت تلـك اللقاءات، في المرحلـة الأولى من تسلمـي لمنصبي سكرتيراً صحفيـاً، توحي لي بأن تفكـير بوش بالتغيـير الديمقراطي كان هو السبب الرئيس والمحـرك لغزونا للعراق. فقد كان الغـزو يمثـل مهمة ذات أبعاد إستراتيجية أكبر بكثير مـن تلك التي كان يتم التركيز عليهـا علناً وتتمثل في إزالة «خطر كبـير وداهم» قادم من العراق. وبينما كانت احتمالات اكتشـاف أسلحة دمار شامل في العراق تتهاوى، فإن الحلـم المتمثل بتغيير المنطقة أصبح الجزئية الأكثر أهمية في خطاب الرئيس – وخطابي.

قبـل يوم واحد مـن استلامي منصب السكرتـير الصحفي، حضـرت اللقاء الذي تم بـين الرئيس والأمين العـام للأمم المتحدة كوفي أنان في المكتـب البيضاوي. بدأ الاجتماع بمناقشـة حول رحلـة الرئيس الأخـيرة إلى إفريقيـا، والدعم غير المسبـوق الذي قدمته الولايات المتحدة للقارة المنكوبة بما في ذلك أدوية لمعالجة مرض الإيدز، وتوسيع التجارة، ومحاربـة الجوع، ودعم الجهود التـي تبذلها القارة عبر قوات حفـظ السلام في المناطق التي تشهد نزاعات وحروب أهلية.

انتقل الحديث بعدها حول العراق، وكان موضوعاً مغلفاً بالتوتر. فقد حث أنان بوش قبل الغزو، أن لا يقوم بتحرك إلا بدعم من الأمم المتحدة، وهي نصيحة رفضها بوش. كان بوش يعتبر أنان قائداً ضعيفاً، يختصر في شخصـه الهيئة العديمة الفاعلية التي يمثلهـا. وكان أنان، الدبلوماسي اللطيـف، الذي لا يأبه كثيراً للأضواء غير موحٍ بالثقة البتـة، لبوش الحـازم، والفاعل، والمهتم بالنتائج. ومع ذلـك فقد كانت علاقتهما ودية ومبنية على الاحترام المتبادل.

شكـر الرئيس أنان لإيفـاده ممثله الشخصي سيرجيو فيـيرا دو ميلو الذي يتمتع بقدر واسع من الاحترام للمساعدة في مرحلة التحول في العراق. فقد شعر بوش وفريق السياسة الخارجية لديه أن من المهم أن يكون هناك وجود للأمم المتحدة في بغداد. فكلما كان هناك وجـود أكـبر للأمم المتحدة ودول أخـرى في العراق – بما في ذلك الـدول التي عارضت في البـدء القرار الأولي لشن الحرب – كان الحمل أخف على كاهل الولايات المتحدة. بطبيعة الحال، كان هذا الموقف يشكل تناقضاً بشكل أو بآخر، إذا أخذنا بعين الاعتبار رغبة الرئيس بشـن حرب استباقية مـن دون موافقة واضحة من الأمم المتحـدة (بالرغم من أنه اعتبر قـرار مجلـس الأمن رقم 1441 بمثابـة إعطاء ضوء أخضر له كي يقـوم بذلك). من هنا، يمكـن فهم تشجيع بوش الخجول لتواجد الأمم المتحـدة في العراق، وكياسته الدبلوماسية الدائمة مع أنان وبعض القادة المشككين الآخرين، في السر وفي العلن.

لسـوء الحـظ، قتـل فييرا دو ميلـو بطريقـة مأساويـة في التاسع عشر مـن شهر آب، أغسطس، سنة 2003 بتفجير إرهابي استهدف فندق القناة في بغداد الذي كان يستخدم مركـزاً محلياً للأمم المتحدة منذ سنة 1991. وقتل معـه في هذا التفجير واحد وعشرون من أفراد طاقم الأمم المتحدة. وبنتيجة ذلك، قلصت الأمم المتحدة انخراطها وحضورها في بغداد في المستقبل المنظور.

أكد بوش في حديثه مع أنان على رأيه أن عراقاً ديمقراطياً وحراً، يمثل قاعدة أساسية للسلام في الشرق الأوسط. اعترف بأن الحال هناك تتجه نحو الصعوبات، إلا أنه أكد أن التحالـف يسيطر تدريجياً على الموقف. قال إنه شعر أن بول بريمر يقوم «بعمل رائع» عبر إشرافه على الفترة الأولى من مرحلة التحول الديمقراطي الذي يشهده العراق. أكد أنان علـى الحاجة إلى إظهار أن «هناك ضـوء في نهاية النفق» لسلطة التحالف الانتقالية التي يقودهـا بريمر، كما وصف المجلس العراقي الحاكـم الذي كان قد أعلن عنه مؤخراً، وهو عبـارة عن هيئة تمثيلية موسعة، تم تعيينه من قبـل سلطة التحالف الانتقالية، «بالخطوة الإيجابيـة جداً» باتجـاه وضع العراق على الطريق نحو السيـادة. لقد تحولت الموضوعات التـي يطرحها بوش بالنسبة لي إلى أمور مألوفـة يوماً بعد يوم، وأنـا أحضر لقاءاته مع زعماء العالم في دوري الجديد سكرتيراً صحفياً.

في اليوم الأول لاستلامي منصبي الجديد، كان الرئيس يستقبل رئيس الوزراء التشيكي فلاديمير شبديلا. بدأ الرئيس اللقاء بشكر رئيس الوزراء على «الدعم القوي الذي أبداه في وجه الانتقادات العنيفة» بشأن العراق، وأعلمه أن إدارته لن تنسى «هذه القيادة القوية». علمت فيما بعد، أن هذا هو أسلوب الرئيس؛ فقد كان يميل إلى الحكم على شخصية «وقوة» زعيم أي دولة عبر دعمه لقرار غزو العراق. وكان (شبديلا) شأنه في ذلك شأن بعض القادة الذين عاشوا تحت ظل الحكم الشيوعي، يشاطرون حماسة بوش للحرية، ولهذا فقد وقفوا بقوة إلى جانبه في الحرب على العراق.

قال شبديلا إنه يعتقد أن ما تفعله الولايات المتحدة في العراق «يهدف إلى المساعدة في جلب السلام والاستقرار» لمنطقة الشرق الأوسط. أجاب بوش قائلاً: «لقد أثرتَ نقطة مهمة جداً. فمن المهم أن نبقي في أذهاننا الصورة الكبرى المتمثلة برؤيتنا. فالموقف الذي اتخذناه في العراق سوف يجلب السلام والاستقرار. إنني أؤمن فعلاً أن عراقاً حراً وآمناً سوف تكون له تداعياته الطويلة المدى [على الشرق الأوسط]. فالحرية قوة.

في أواخر شهر تشرين الأول، أكتوبر، سنة 2003، قام الرئيس بزيارة إلى كانبيرة في أستراليا، بعد انتهاء مؤتمر القمة الاقتصادية لمنطقة آسيا المطلة على المحيط الهادي الذي عقد في بانكوك تايلندة؛ وبعد أن توقف في كل من اليابان وسنغافورة وإندونيسيا. التقى بوش برئيس الوزراء الأسترالي جون هوارد الذي كان بوش يعده حليفاً جيداً وصديقاً. حضرت الاجتماع في غرفة مجلس الوزراء داخل مبنى البرلمان.

كان هوارد، بالرغم من الانقسام الشديد بين الأستراليين، يقف بقوة وراء قرار بوش للإطاحة بصدام حسين، واستطاع إقناع البرلمان الأسترالي بضرورة إرسال قوات لدعم الغزو والاحتلال الذين قادتهما الولايات المتحدة. ناقش كل من بوش وهوارد كما درجت عليه العادة في لقاءاتهما، عدداً من القضايا الملحة، بما في ذلك العراق، وعملية التغيير في الشرق الأوسط.

قال بوش لهوارد: «أشكرك على موقفك الحازم، وعلى صداقتك. من المهم أن يمتلك المرء الشجاعة للقيام بما هو صواب. هذا بالضبط، ما قمتَ به يا جون. سوف يغير العراق خريطة الشرق الأوسط. وسوف تتغير إيران» بسبب ما نقوم به في العراق.

في وقت لاحق في ذلك الاجتماع، سأل أحد مستشاري هوارد الرئيس بوش إذا كان يعتقد أن الثقافة الإسلامية يمكن أن تتبنى الديمقراطية.

أجاب بوش: «أظن أن ذلك سيحدث بمرور الوقت، وأعتقد أن العراق هو المكان المناسب» الذي سيجعل ذلك ممكناً. «سوف يتحول إلى دولة حرة وديمقراطية» مثله مثل «التحول الذي تشهده» كل من تركيا والبحرين.

أضاف بوش قائلاً: «أؤمن أن الحرية هي أعمق الآمال في قلب كل إنسان. وأظن أن هناك عدداً كافياً من القادة المسلمين الملتزمين بمبدأ الحرية وذلك لقيادة الدول الإسلامية في ذلك الاتجاه. أعتقد أن ذلك سوف يحدث».

في أوائل شهر تشرين الثاني، نوفمبر، استقبل الرئيس بوش رئيس وزراء سيريلانكا، رانيل ويكريميسينغ في البيت الأبيض. بدأ الرئيس بشكر رئيس الوزراء على «موقفه القوي» حيال العراق في آخر اجتماع عقدته الجمعية العامة للأمم المتحدة في أيلول، سبتمبر. أكد رانيل أن الولايات المتحدة «لم يكن لها خيار سوى التدخل» عسكرياً، وهو ما أدى إلى توجيه انتقادات شديدة له في وسائل الإعلام في بلاده. أكد بوش أن «القرارات التي اتخذتُها كانت استجابة للمخاوف الأمنية في أمريكة. كما أؤمن أيضاً أن المجتمعات الحرة هي مجتمعات مسالمة». أضاف أن الطريقة التي تعامل فيها مع صدام حسين جعلت دولاً مارقة أخرى مثل كوريا الشمالية تعرف كم أن الولايات المتحدة جادة في مواجهة التحديات. وقال بوش: «بعد خمسين سنة من الآن، سوف يقول الناس «شكراً» على ما نفعله في العراق. لقد وقفتم بصلابة في وجوه منتقديكم. أؤكد لكم أمراً واحداً: إن العراق الحر والآمن سوف يساعد في التوصل إلى سلام في الشرق الأوسط».

كان الثبات والشهرة التي تميزت بهما لغة الرئيس الطنانة، لافتة في لقاءاته مع قادة الدول الأجنبية. لقد أقنعني ذلك بصدق عاطفته تجاه فكرة زرع الديمقراطية بصورة قسرية كطريقة لإحلال السلام في الشرق الأوسط. يمكن للمرء أن يتساءل حول الحكمة من هذه الخطة أو فاعليتها، ولكن ليس حول صدقية رؤيته الشخصية التي قادت إليها.

openkandil.com

في ذلك الوقت، كانت من القوة والأمل بحيث إنني بدأت أؤمن بها أيضاً، وهو ما ساعد على قمع كل التشكيك الذي كان بداخلي حول القرار الأصلي.

كان التواصل مع الشعب الأمريكي حيال الوضع في العراق أكثر صعوبة. فبعد أن تم تسويق فكرة ضرورة الحرب عبر فكرة أن صدام كان يشكل تهديداً مباشراً ومتزايداً للمنطقة، وللولايات المتحدة، وللعالم، فإن الشعب ووسائل الإعلام كانت تزداد شكوكهم بشكل مطرد بعد انقضاء فصل الصيف من دون العثور على أسلحة الدمار الشامل. لذلك انتابنا شعور بالارتياح في نهاية شهر تموز، يوليو، وفره لنا نبأ مقتل نجليّ الدكتاتور صدام عديميّ الرحمة والمكروهيْن، عدي وقصي حسين؛ وأدى ذلك إلى تحولٍ في اهتمام وسائل الإعلام لبرهة قصيرة. لقد جاء هذا النبأ مناسباً لتوقيت المؤتمر الصحفي الذي يعقده الرئيس عادة في منتصف الصيف؛ وهو حدث يتم عادة في نهاية شهر تموز، يوليو، أي مباشرة قبل أن يتوجه الرئيس وبعض أفراد طاقمه إلى كروفورد في ولاية تكساس لقضاء شهر آب، أغسطس، هناك. وكان ذلك سيكون المؤتمر الصحفي الرسمي الأول الذي يعقده بوش بعد الغزو.

كان من الصعب علينا دائماً، نحن أعضاء فريقه من المستشارين تقويم النبرة التي يستخدمها الرئيس عند مناقشته للوضع العراقي بشكل دقيق. لم نكن نريد له أن يظهر أي نوع من التشاؤم بالطبع، لكننا لم نكن نريد له أن يبدو منفصلاً عن الواقع المؤلم على الأرض، والذي تنقله وسائل الإعلام يومياً. ومع تغير الأحداث في العراق بشكل يومي وغير متوقع، ومع وقوع هجمات متكررة ضد القوات الأمريكية – بالرغم من إعلان الرئيس في شهر أيار، مايو، أن العمليات العسكرية الكبرى قد انتهت – فقد كانت هذه طريقاً لم يكن من السهل سلوكها.

ومع التحضير للمؤتمر الصحفي لشهر تموز، يوليو، اتفقنا أن على بوش قبول المسؤولية عن «الكلمات الست عشرة» الخاطئة في خطابه حول حال الاتحاد. سوف يحتل هذا القبول العناوين الرئيسة في وسائل الإعلام، طالما أنه يشكل خبراً بحد ذاته. لكننا

كنـا نأمل أيضاً في لفت الانتباه إلى تطورات أكثر إيجابية في الأسابيع الأخيرة في العراق. كان الرئيـس يفضل لقاء صحفياً أقل رسمية قبل عقد المؤتمر الصحفي. كنت قد أعددت بمساعدة من نوابـي، أسئلة، واقترحت أجوبة عليها كي يستطيع بوش مراجعتها في الليلة التي سبقت المؤتمر الصحفي. كان دان بارتليت، مدير الاتصالات يرغب في أن يقوم بوش بالتركيـز على نقـاط الرسالة الأشمل، وأن يعمل مع فريق كتابـة الخطابات لإعداد كلمة الافتتـاح. عادة ما تكون هنـاك جلستان في اليوم الذي يعقد فيـه المؤتمر الصحفي حيث نتفحص الأسئلة التي يحتمـل أن توجه إلى الرئيس. الجلسة الأولى كانت تعقد في المكتب البيضـاوي مباشـرة بعد وصول الرئيـس، أو بعد لقائه الصباحي مـع أجهزة المخابرات. تكـون الجلسـة الأولى أقصـر من الثانية في العـادة، وكانت تتراوح بـين عشرين وثلاثين دقيقـة. بينما الثانيـة التي تكون أقرب إلى الموعد المقرر للمؤتمـر الصحفي عادةً، وتعقد في المكتـب البيضاوي فتتراوح بين ثلاثين وخمسـ وأربعين دقيقة. كان كل من آندي كارد، وكونـدي رايـس، وكارل روف يحضـرون عادة، واحدة مـن هاتين الجلستـين على الأقل. كان بوش يجلس إلى مكتبه في جلسات «منصـة القتل» هذه بينما نوجه نحن إليه الأسئلة الصعبـة أو القاتلـة. كان بوش يحب أن يخلق جواً من المرح في هذه الجلسات، ساخراً من بعضـ الأسئلة بأجوبة مرحة لا يمكن له أن يتفوه بها علناً. كانت مناسبة له كي يسترخي، ويركز تفكيره، بالطريقة نفسها التي يقوم بها لاعب رياضي يشارك في البطولات العالمية، حيث يقوم بعملية استرخاء قبل البدء بالمباراة الحاسمة.

عندمـا تبدأ اللعبة، يكون الرئيس جاهزاً. يحقـق إصابات دقيقة، على كل الأهداف التي يصوب عليها، الواحد تلو الآخر. أشار إلى التقدم الذي نحرزه في العراق في الوقت الذي اعترف أننا نواجه صعوبات هناك داعياً إلى التحلي بالصبر. قال إن أغلب مناطق العـراق تشهد قدراً أكبر من السـلام بالرغم من أن «فلول نظام صدام حسين بالتعاون مع الإرهابيين والمجرمين» ما تزال «تقوم بمحاولة أخيرة «لترويع الشعب العراقي والحد من عزيمة قوى التحالف».

أكـد الرئيـس أن «قيـام عراق حر وآمـن يعد مسألـة حاسمة بالنسبـة للاستقرار في الشرق الأوسط، وأن شرقـاً أوسط مستقلاً يشكل مسألة حاسمة لأمن الشعب الأمريكي.

إن نجـاح عراق حر سوف يثبت لدول أخـرى في المنطقة أن الازدهار والكرامة الوطنية لا تتوافـران إلا عبر حكومـة ومؤسسات حرة تمثل الشعب. لا يمكـن لأي من هذا أن يتحقق في ظـل الديكتاتورية والقهر و...دعم الإرهاب. وفي الوقت الذي تتقدم الحرية في الشرق الأوسـط، فإن احتمالات أن تقوم هذه المجتمعات بتفريخ عقائد الكراهية وإنتاج مجندين لصالح الإرهاب ستتلاشى بدرجة كبيرة».

ألمح بوش إلى مقتل عدي وقصي قائلاً: «في الوقت الذي رُفِعَ غطاء الخوف عن الشعب العراقـي، وفي الوقت الذي يستعيد العراقيون ثقتهـم بأن النظام السابق قد ولّى إلى غير رجعة، فإننا نتطلع إلى الحصول على المزيد من التعاون في بحثنا عن الحقيقة في العراق». كمـا عبر عن ثقته بأن الحقيقـة حول أسلحة الدمار الشامل ستؤكد على مصداقية قراره بشـأن خوض الحرب في العـراق: «نعرف أن صدام حسين أنتج وامتلـك أسلحة كيميائية وبيولوجيـة، وأنه استخدم الأسلحة الكيميائية. نحن نعرف ذلك. كما أمضى سنوات وهو يخفـي أسلحة الدمار الشامل هذه عن أعـين العالم. لدينا الآن فريق من المحققين الذين يبذلون أقصى جهودهم من أجل كشف الحقيقة».

تنـاول بوش أيضاً بعض القضايا الأخـرى التي تهم الأمريكيـين. متذكراً بأن هزيمة حملـة إعادة انتخـاب والده يعود بشـكل رئيـس إلى لا مبالاته الواضحـة بمعاناة الشعب الاقتصاديـة («إنـه الاقتصاد يا غبي»)، وواضعاً في ذهنـه الانتقادات الحالية للانتعاش الاقتصـادي على حساب «فقدان الوظائف»، أكد بوش على إنجازات إدارته الاقتصادية المتمثلـة بالدعـم الإضافي الذي يتلقـاه دافعو الضرائـب، وأصحاب الأعمـال الصغيرة. وللمرة الأولى، أشار إلى ضرورة الانفتاح على فكرة التعديل الدستوري لمنع الزواج المثلي، وهو موضوع ساخن بالنسبة للقادة المسيحيين المحافظين.

شعرنـا أن الرئيس قام بهذه المهمة بشكل جيـد. ولكن عندما تشتَمُّ الصحافة في لعبة واشنطـن أن سياسيـاً في موقع الدفاع، فإن انعطافاً حاداً مـن نوع خاص في قواعد اللعبة يطـل برأسـه: إذ لا يمكـن التفريق في هذه الحال بـين الحكام والفريـق المنافس. ركزت عناويـن الأخبار التي صـدرت بعد المؤتمر الصحفي على مصداقيـة بواش التي تتراجع،

ومشـيرة إلى إنكاره للاتهامات بشـأن مبالغته في تسويق قضية الحرب على العراق. وكما يقـول المثل القديم المأثور، عندما تكون في موقع الدفاع، فإنك تخسر – وتلك كانت البقعة غير المريحة التي وجد بوش نفسه محصوراً داخلها.

أتبعت محطة NBC News تغطيتها للمؤتمر الصحفي بآخر استطلاع للرأي العام، يظهـر أن معدل الدعـم للرئيس تراجع من نسبة 71 بالمائة في نيسـان، أبريل، إلى 56 بالمائة الآن. في الوقت الذي ازدادت نسبة المعارضين له من 23 بالمائة إلى 38 بالمائة عن الفـترة نفسها. مـن ناحية أخرى، كان ما يزال يحظى بدعـم قوي فيما يتعلق بالحرب علـى الإرهاب، حيث ظهـر أن 66 بالمائة ما يزالون يدعمون الطريقـة التي يعالج فيها هـذه المسألة. كما عبر 56 بالمائة عن اعتقادهم بأن هجوم الديمقراطيين على بوش له «دوافع سياسية».

مع ذلك، لم تكن الميول الشعبية مُرْضية. فلو استمرت المشكلات في العراق بالتصاعد – خصوصـاً لـو استمرت الكُلَـف البشرية والماليـة في الارتفاع، وبـدأت الدوافع الرئيسة الحقيقيـة لشن الحرب تتكشف – فلن تكون المسألة سوى مسألة وقت قبل أن يبدأ الشعب الأمريكـي في التراجـع عـن تأييد الحرب بشكل جماعـي، جارفاً في طريقـه الإدارة التي وضعت مصداقيتها على المحك بِرِهانها على هذه الحرب.

خـلال فصـل الصيف ذاك، لم نكن قد فقدنا بعدُ الأملَ في الكشف عن أسلحة الدمار الشامـل. قـام ديفيد كاي، وهو عالم يتمتع بقدر كبير مـن الاحترام، ومفتش له باع طويل في مجـال الأسلحة، بتقـديم التأكيد لنا سراً وعلناً أن هنـاك كل الأسباب التي تؤكد على الدليـل اللعـين أن سعي صدام للحصول علـى أسلحة الدمار الشامل سـوف يتم الكشف عنـه في نهاية المطاف. قـاد كاي مجموعة المسح في العراق التي تتكون من أكثر من 1400 شخصـ في مهمة تقصي حقائق شكلها البنتاغـون بالتعاون مع وكالة المخابرات المركزية للبحـث عـن أسلحة الدمار الشامل في العراق. استناداً إلى مـا تم إعلامنا به، شعرنا أنه وبالرغم من أن إمكان أن يكون الكشف عن مخزون ضخم غير وارد، فإن كميات صغيرة

مـن الأسلحة الكيميائية والبيولوجية مـا زال من الممكن الكشف عنها، تزامناً مع الكشف عـن الدليـل على وجود برامج بحثيـة لتطوير أسلحة الدمار الشامـل. لو حدث شيء مثل هذا، فسيؤدي، وبدرجة كبيرة، إلى إضعاف حدة هجوم الديمقراطيين الذين يؤكدون أن إدارة بوش بالغـت في التركيز على التهديد، أو أنها تعمـدت تضليل الشعب الأمريكي كي تتمكن من تسويق الحرب.

أعطانـا تفـاؤل كاي جرعة من الراحـة في البيت الأبيض - وكانـت راحة زائفة، كما تبـين لاحقـاً. ولكن في الوقـت نفسه، سمحت لنا الجهـود المستمرة التـي كان يبذلها في العـراق بالتغطية على (الحجج) التـي ساقتها المخابرات من أجـل تسويغ الحرب. كان مـا يـزال بإمكاننا تأجيل - أو حتى تجنب - الخوض في مسألة الإقرار بأي آراء حاسمة حـول الدافـع الذي قاد إلى الحرب، وما ساعدنا في ذلـك، كان استمرار مجموعة المسح في العـراق في القيـام بمهمتها؛ بالرغم من أنه كان يعوزنا الدليـل الذي يدعم ما أقنعنا أنفسنا بكل ثقة، بالإيمان به.

في أوائل شهر تشرين الأول، أكتوبر، نشر كاي تقريراً داخلياً بشأن التقدم في التحقيق. حـذر من أنه ما يزال من المبكر الوصول إلى استنتاجات نهائية. اكتشفت مجموعة المسح «عشـرات من البرامج المتعلقة بنشاطات حول أسلحـة الدمار الشامل»، لكنها لم تجد أي أسلحـة دمار شامل. تلقفنا التقرير بسرعة كدليل على أن هذا يشكل خرقاً مادياً من قبل صـدام حسين للقـرار 1441، الذي منحه فرصة أخرى وأخـيرة للالتزام بمطالب الأمم المتحـدة بشأن نـزع الأسلحة، أو مواجهـة عواقب وخيمة. أظهر التقريـر أن الرئيس كان محقـاً بشـأن «إزالة الخطر الـذي كان نظامه يمثله بالنسبة للعالم» كمـا قال كولن باول. انتقلـت نقطة الارتـكاز التي كنا نستند إليها من أسلحة الدمار الشامل إلى برامج أسلحة الدمـار الشامل، بالرغـم من أنه لو سئلنا حول هـذا الموضوع، لأجبنا بأننـا مقتنعون أن أسلحة الدمار الشامل لا بد وأن تظهر في النهاية.

استغـل منتقدو الحـرب والديمقراطيون تقرير كاي لطرح إمـكان أن تكون الإدارة في أدنـى الأحوال، قد افتعلت التهديد بأسلحة الدمار الشامل في العراق. وقد ضغطت دايان

سوير على الرئيس للتحدث حول هذا الموضوع أثناء مقابلة معه في البيت الأبيض بعد شهرين وذلك في شهر كانون الأول، ديسمبر، سنة 2003. سألت سوير الرئيس، وهي تستشهد باستطلاع للرأي يفيد أن نسبة 50 بالمائة من الأمريكيين يعتقدون أن الإدارة بالغت في مسألة الدليل في مرحلة إعدادها للحرب، فيما إذا كان يعتقد أن إدارته كانت مخطئة أو مُضَلَّلة.

رفض بوش أن يبتلع الطعم. قال إن أجهزة المخابرات كانت دقيقة وأنه «لم يكن هناك شك في أن صدام حسين كان يشكل خطراً». حاولت سوير محاصرته قائلة إنه قبل الحرب، كان هو وآخرون من إدارته، قد أكدوا أنه ما من شك في أن صدام حسين يمتلك أسلحة دمار شامل. في معرض إجابته، انتقل الرئيس إلى تأكيده الذي غالباً ما يلوذ به من أنه قام بالعمل الصائب بغض النظر عن وجود أسلحة الدمار الشامل، أو عدم وجودها. قال: «كان صدام حسين يمثل خطراً، والعالم الآن في وضع أفضل بعد أن تخلصنا منه».

ألحّتْ سوير من جديد، مركزة على التمييز بين أسلحة الدمار الشامل، وبين برامج أسلحة الدمار الشامل. وأشارت إلى أن الإدارة سبق لها التأكيد أن «هناك أسلحة دمار شامل، وليس على إمكان أن باستطاعته التحرك نحو امتلاك هذه الأسلحة».

كان جواب بوش موحياً، أكثر مما تأملتُ فيه حينها. سأل بوش: «حسنٌ؛ ما هو الفرق؟» في المحصلة، لو كان صدام حسين يمتلك أسلحة دمار شامل، كان ما زال يشكل خطراً. رفض بوش القول فيما إذا كان باستطاعة إدارته أن تكون أكثر دقة في تحديدها للأسباب الحقيقية للحرب، ونفي الانتقادات التي تتهمها بأنها ضللت الشعب الأمريكي. أكد من جديد أن الجميع اطلعوا على تقرير المخابرات نفسه، وخرجوا بالانطباع نفسه – أن صدام حسين كان يمثل تهديداً، وأنه كانت هناك حاجة للتعامل مع هذا التهديد.

حظيت أجوبة الرئيس بكمٍّ لا بأس به من الاهتمام الإعلامي، والنقد من قبل الديمقراطيين، لاحظ بعضهم أن المسوغ كان أن النظام العراقي شكل تهديداً مباشراً وهو ما استدعى عملاً استباقياً. لكن هذا لم يكن له تأثير سلبي على الرأي العام طيلة الوقت. قبل وقت قصير من إجراء المقابلة مع سوير، كانت قواتنا قد ألقت القبض على

صـدام حسين حيـث سحبته من «حفرة العنكبوت» التي كان يختبـئ فيها. وفرت لنا هذه الأخبـار الجيدة زخماً مؤقتاً لتبرير الحرب. مع ذلك، فإن الرواية بشأن المبالغة والخداع المتعمدين كانت قد ترسخت، على الأقل منذ أن ظهر اللغط بشأن الكلمات الست عشرة.

كان انعـدام الصراحـة من جانبنا، والبطء في القيام بأي شـيء من شأنه مواجهة المشكلة، حتى لو تمثل ذلك بإجراء تحقيق حول السبب الذي أدى بنا إلى الوقوع في هذا الخطأ، هو ما أدى إلى تكريسه. كان الرئيس محقاً في قوله (من المفترض) أن الجميع كانت لديه المعلومات الاستخباراتية نفسها التي تدفعه إلى التأكد والاعتقاد بأن صدام كان يمثـل خطراً. لكنه هـو من دفع البلاد بسرعة باتجاه الحرب استناداً إلى الطريقة التي رتـب فيها مستشاروه هذه المعلومات الاستخباراتية كـي تبدو أكثر خطورة، وأكثر إلحاحاً مما كانت عليه في واقع الأمر.

وبسبـب استمرارنا في عدم الصدق والصراحة حول قضية الحرب، كان الرئيس يورط نفسـه أكثر فأكثر، ويتسبب في المزيد من إثـارة الشبهات، ويزيد من أوار الحرب الحزبية. وقـد وفر كل ذلك الفرصة لبعض المنتقدين والحزبيـين الديمقراطيين للقيام بطرح أسئلة يلمحـون عبرها إلى عملية تضليـل متعمد قام بها فريق بوش من صانعي السياسات طوَّعوا عبرها التقارير الاستخباراتية لتسويق الحرب. ولكن بما أننا آثرنا تجنب الخوض في مناقشة هذا الأمر، أو التدقيق الشامل في حقيقة كيف حدث كل هذا، لم يكن أمامنا من خيار سوى القيام بهجوم معاكس نطرح فيه علامات استفهام (وليس تفنيدات) حول أمانتهم وعدالة مواقفهم من هذه القضية. وهكذا بدأ أوار الحرب الحزبية يستعر من جديد.

يمكـن في هذا المضمار اتهام وسائل الإعلام بأنهـا بالغت في التركيز على هذا اللغط الـذي سمح للطرف الآخر بالقيام بهجوم ماكر علينا بغيـة استحواذه على اهتمام كبير. لكـن سياسـة اللف والـدوران والمراوغة التي اتبعناهـا أدت إلى بقاء العديـد من الأسئلة المعلقـة في الهـواء من دون إجابة، وهو ما عرَّضَ الإدارة إلى الكثير من الانتقاد المتزايد. كانـت سردية يمكـن تغيير مسارها فقط عـبر الصراحة والاستعـداد لتحمل بعض الألم

السياسي على المدى القصير عن طريق الاعتراف بأخطائنا. أدركنا في وقت متأخر أننا أضعنا فرصتنا في وضع حد لهذه السرية مرة وإلى الأبد. لكي يتم ذلك، كان على الرئيس أن يقوم بتحقيق شامل حول تسويق الحرب، متقبلاً المسؤولية بشكل جلي؛ ومن ثم، محاسبة كبار المسؤولين عن هذه القضية. بدلاً من ذلك، اختار الرئيس المضي في طريق كانت لا بد أن تؤدي إلى استحقاق أكبر يدفع ثمنه من رصيد مصداقيته وإرثه.

أدى هذا النهج في شهر كانون الثاني، يناير، سنة 2004 إلى تراجع كبير في معركة كسب الرأي العام. استقال ديفيد كاي من منصبه كرئيس لمجموعة المسح في العراق في ذلك الشهر، وأقر في شهادة له أمام الكونغرس بعدم وجود أي أكوام من أسلحة الدمار الشامل. قال كاي «تبين أننا كنا مخطئين جميعاً، ربما من وجهة نظري». دعا كاي مثله مثل قادة الديمقراطيين المعروفين إلى تشكيل لجنة تحقيق مستقلة من خارج المؤسسة حول الإخفاق الواضح للاستخبارات الأمريكية. لكن كاي قال إنه لا يعتقد أن الإدارة مارست الضغط على المخابرات من أجل تضخيم التهديد الذي يشكله النظام العراقي. (في صيف سنة 2004، توصلت لجنة المخابرات في مجلس الشيوخ إلى الاستنتاج ذاته، مؤكدة أن صانعي السياسات تم تضليلهم بواسطة معلومات استخباراتية خاطئة، وواضعة بذلك حداً لأي تساؤل حول الكيفية التي استغل فيها صانعو السياسات المخابرات).

كان بوش ومستشاروه يخشون التحقيقات المستقلة من خارج الإدارة. ولكن في الوقت الذي تصاعد الزخم حول إجراء تحقيق مستقل آخر، تبين لنا إيجابيات التحرك بسرعة، وبشروطنا. أعلن بوش بعدها مباشرة، إنشاء لجنة مستقلة من الحزبين للتحقيق في مسألة تقرير أجهزة مخابراتنا حول أسلحة الدمار الشامل بما في ذلك، في العراق. تم تعيين أعضاء هذه اللجنة من قبل الرئيس، كما تم تحديد مجال عملها من قبل فريقه. ولكن صلاحية هذه اللجنة لن تتضمن النظر في الكيفية التي استخدمت فيها أجهزة الاستخبارات لتسويق فكرة الحرب. هذا ما أراد بوش وكبار مستشاريه أن يتجنبوه خوفاً من أن تكون نتائج مثل هذا التحقيق مدمرة سياسياً في الحد الأدنى - خصوصاً في السنة الانتخابية. كانوا مستعدين للسماح بأن تصبح الأمور أكثر تسييساً، وبعضهم عدها

معركـة يمكن أن تنتهي بالتعـادل، أو أن تستخدم لتنشيط القاعدة الحزبية، كما اعتقدوا أن الكلفة السياسية على المدى القصير يمكن أن تكون في حدها الأدنى.

لم يكـن بوش يأبه كثيراً أو قليلاً للكيفية التي تم فيها الترويج للحرب. فالمهم بالنسبة إليـه كان يتمثل في شيئين اثنين: سياسة الحكومة والنجاح في تطبيقها. يميل الناس عادة باتجـاه التسامح إذا كانـت النتائج تدعو إلى التفاؤل. إذا كانـت السياسة صحيحة، وإذا كان من الممكن بالتالي تعليل تسويق هذه السياسة، عندها لن يكون الفرق بين الاثنتين ذا بـال. بهذا المعنى، كان النجاح في الحكـم بالنسبة إلى العقلية التي تحكم واشنطن، يعني كسب الرأي العام والحصول على نتائج إيجابية.

يبـدو الرئيـس حتى هذا اليـوم غير آبه بعدم وجـود أي ارتباط بـين المنطق الرئيس، المسـوغ لشن الحـرب، وبين الدافع وراءها، كما أنه لم يبـد أي اكتراث للكيفية التي رتبت فيها هذه القضية. فالسياسة هي الأصح، وسيحكم التاريخ لها بذلك، عندما يتبوأ العراق الحر موقعه الثابت، ويبدأ الشرق الأوسط بالتحول أكثر فأكثر باتجاه الديمقراطية.

وقد تشبث بوش بهذا الاعتقاد أثناء مقابلة له مع تيم راسيت في محطة NBC News في برنامـج: «واجـه الصحافة» في أوائل شهر شباط، فبراير، سنـة 2004. سأله مضيف البرنامـج: «في ضوء الإخفـاق في العثور على أسلحة الدمار الشامل، هل تعتقد أن الحرب في العراق كانت حرباً اختيارية، أم أنها حرب أملتها الضرورة؟»

أجابـه بوش: «هـذا سؤال لافت للنظر. أرجـو أن تدقق في هذا الأمـر أكثر قليلاً. هل كانت حرباً اختيارية، أم حرب أملتها الضرورة؟ لقد كانت حملة أملتها الضرورة. لم يكن لدينا أي خيار آخر في رأيي، خصوصاً عندما ندقق في التقارير الاستخباراتية التي دققت فيها، كانت تؤكد أن ذلك الشخص كان يمثل تهديداً.

اذكـر أنني تحدثت إلى الرئيس حول هـذا السؤال بعد المقابلة. كانت تبدو على محياه أمارات الاستغراب، وسألني عن الغرض الذي كان راسيت يرمي إليه عبر هذا السؤال.

وهـذا بدوره، أثـار استغرابي. فبالتأكيد كان على بوش التفكـير ملياً وقبل شهور عدة على القيام بالغزو، بأن التمييز بين حرب ضرورية لا يمكن تجنبها، وبين حرب كان يمكن

للولايـات المتحـدة أن تتجنبها لكنها اختارت أن تشنها هـو مسألة في منتهى الوضوح. من الواضـح أن ذلـك لم يكن جلياً بالنسبة لبوش، كمـا أن فريقه في مجلس الأمن القومي لم يشـأ أن يتأكـد من ذلك. فهو مـن رسم معالم السياسة في وقت مبكـر، قام بعدها فريقه برسـم الخريطـة التي يستطيع عبرها تسويق هذه السياسـة. يدهشني اليوم ذلك كدليل علـى غيـاب حس الفضـول لديه، ومقاومته الضـارة للتفكير؛ وهو مـا كان على فريقه أن يملأه بصورة أفضل مما قام به.

يمكـن أن يقول أكـثر المراقبين حيادية أنه في سنـة 2003، لم تكن هناك حاجة ملحة لمواجهة هذا التهديد الذي كان يمثله صدام حسين بغزو شامل، ومن هذا المنظور، لم تكن الحرب ضرورية. لكن هذا سؤال لا يبدو أن الرئيس راغب في الرد عليه.

جلسـت من دون حراك وبوجه جامـد كالصخر في القاعة الشرقيـة الأنيقة في البيت الأبيض، بـاذلاً أقصـى جهد ممكن كـي لا يبدو عليّ القلـق أمام حشد مـن الصحفيين المجتمعين. مع ذلك، كنت أشعر أن عضلات جسدي تتشنج وأنا أستمع إلى جواب الرئيس المرتبك على سؤال مباشر وواضح.

كان ذلـك بحلول نهايـة مؤتمر وقت الذروة في شهر نيسـان، أبريل، سنة 2004. كان الرئيس قد دعا جون ديكرسـون، وهو مراسل مجلة تايم في البيـت الأبيض ليطرح عليه سـؤالاً. ونظـراً إلى أن ديكرسون قـام بتغطية نشاطات بوش منـذ انتخابات سنة 2000، فقد أصبح وجهه مألوفاً ومريحاً. ونظراً لكونه يكره المخاطر، كان الرئيس يتردد في دعوة صحفيين لا يعرفهم كي يطرحوا أسئلتهم عليه، وكان يفضل بدلاً من ذلك الالتزام بقائمة من صحفيين توجد علامات بجانب أسمائهم على جدول المقاعد المتوضعة قبالة المنصة. كانـت القائمة تضم دائماً أشهر الصحفيين من الشبكات الإعلامية المعروفة، والخدمات السلكيـة، والصحـف، بالإضافـة إلى صحفي واحد علـى الأقل لصالـح إحدى محطات الراديو، وآخر لصالح إحدى المجلات الإخبارية.

obeikandl.com

كانت ميزة هذه المقاربة تكمن في أن الأسئلة التي يوجهها المراسلون الإعلاميون المعروفون تركز بشكل متوقع على العناوين الرئيسة التي ظهرت خلال الأسبوع. من النادر أن يتم طرح أي سؤال لا نكون قد أعددنا الرئيس للإجابة عليه مسبقاً. لم يسبق للرئيس أن أطيح به في اللعبة التي يمارسها، أو شعر أنه غير قادر إما على الاحتماء بآرائه الفلسفية، أو إيجاد طريقة للتشبث بمجموعة من مواد الحديث التي يمكن أن يقرأ منها وهو يغط في النوم.

في تلك الليلة، كنت قد وضعت إشارة حول اسم مراسل جديد لإحدى المجلات الإخبارية، وكان مرد ذلك يعود بشكل رئيس إلى أن ديكرسون دعي لطرح سؤال منذ مدة قصيرة. لكنني كنت أعرف أن أسئلته الذكية لها سحرها الخاص الذي قد يلقي بالرئيس خارج المخطط المرسوم. كان يمكن أن تفرض النتيجة تغييراً في التغطية الإخبارية لليوم اللاحق يختلف عما أملنا أن يتم التركيز عليه، أو حتى - وهذا أسوأ - التسبب في خلق أخبار فعلية. ففي أحد المؤتمرات الصحفية على سبيل المثال، سأل ديكرسون الرئيس حول ما إذا كان يعتقد أن المسلمين يعبدون الإله نفسه الذي يعبده المسيحيون. وفي مؤتمر آخر، سأل فيما إذا كان يتفق في الرأي مع «كثيرين» من مؤيديه أن المثلية الجنسية هي شيء لا أخلاقي. كانت الموضوعات الاجتماعية المثيرة للجدل بعيدة جداً عن المنطقة التي يشعر الرئيس فيها بالارتياح، كي لا يتسبب في إثارة تعليقات كثيرة من قبل الناس. عندما أجاب الرئيس بالقول، نعم، المسلمون يعبدون الإله نفسه كالمسيحيين، أصيب بعض القادة الإنجيليين بالذعر. وعندما أجاب على سؤال حول المثلية الجنسية عبر الإشارة إلى ضرورة التسامح مع كل الأفراد، كانت ملاحظته الأولى أننا «كلنا آثمون»، وهو ما أدى ببعض منتقديه من اليسار إلى اعتبار ما قاله سقطة (لأن بوش كان يلمح إلى أن المثلية الجنسية إثم).

لكن ديكرسون كانت لديه طريقة مسالمة، ومبسطة، وجد واقعية بعكس طريقة الرئيس، وهو ما جعل بوش منحازاً إليه. فقد كان سؤاله عادة يرد قبل آخر سؤال؛ وكان سؤاله يوحي بالبساطة إنما بشكل مخادع.

بـادر الصحفـي ذو الشعـر المصفـف بعنايـة إلى القـول في الوقت الـذي كان يلتقط الميكرفـون اللاسلكي: «شكـراً سيادة الرئيس». نهض بعدها واقفـاً كي يطرح سؤاله: «في الحملـة الانتخابيـة الماضية سئلتَ عن أكبر خطأ قمت بـه في حياتك، وكنت تحب أن ترد بدعابة أن أكبر خطأ كان مقايضة لاعب البيسبول سامي سوسا. لا بد أنك تعود بالذاكرة إلى مـا قبـل الحادي عشر من أيلول للتدبر في الأخطـاء التي يمكن أن تكون قد قمت بها. بعد الحادي عشر من أيلول، ما هي أكبر أخطائك، ماذا تقول عنها، وما هي الدروس التي تعلمتها منها؟».

بـدأ الرئيس الإجابـة بتعليق مرح: «كنت أتمنى لو أنك أعطيتنـي هذا السؤال مكتوباً قبـل مدة كافية، كي أستطيع تهيئة جواب مناسب لـه». ضحك الصحفيون الموجودون في القاعة. «أنا متأكد يا جون من أن المؤرخين سوف يعودون بذاكرتهم إلى الماضي ويقولون، يـا إلهـي، كان يمكن له أن يقوم بما قام به بشكل أفضل لو اتبع هذه الطريقة أو تلك. أنت تعـرف أننـي - أنا متأكد من أن فكرة ما، ستجول في خاطـري وأنا هنا وسط هذا المؤتمر الصحفي، بوجود كل هذا الضغط، محاولاً أن أخرج عليك بجواب على سؤالك. لكن هذه الفكرة لم تصل بعد». أعقبَتْ جوابَه هذا مدة طويلة من الصمت الثقيل.

هـل أحسستم يوماً بثوانٍ مرت ببطء الدقائـق؟ عبرت مئات من الأفكار دماغي بينما كان ذلـك الصمت الرهيب يلـف المكان بإحراج لا مثيل له. وجدتني أتساءل: بالله عليك، يـا سيـدي. إنه ليس بالسـؤال الصعب! فقط قل شيئاً من مثل: «أنـا متأكد من أنني قمت بكثـير من الأخطاء، وأن التاريخ سيحكم عليها. ولكن لـدي عمل أقوم به، وبعضهم يريد مني العودة إلى الماضي (يمكنك استعمال عبارتك المفضلة: «التحديق في السرة»)، أؤمن بضـرورة أن ننظـر دائمـاً إلى الأمام، واضعـين في أذهاننا الأهداف المهمـة التي نحاول تحقيقها. هذا ما يتوقعه مني الشعب الأمريكي القيام به، وهذا ما أنوي القيام به».

تململ الصحفيون المجتمعـون بشيء من الضيق في مقاعدهـم بينما استمر الصمت يلـف المكان. عندمـا يتلعثم امـرؤ في العلن، يشعر جميـع الحاضرين بالضيـق. لا يوجد أمريكـي واحد يرغب في رؤية رئيسنا في هـذا الموقف المحرج، أو وهو يشعر بالارتباك من

على منصـة وطنية كهذه. مع ذلك، هذا ما كنا نشاهده الآن. وبينما استمر الرئيس بوش في تعذيـب ذاتـه باحثاً عن جواب، بدأت بتقريع نفسـي. لماذا لم نطرح عليه هذا السـؤال في الجلسـة التدريبية قبل ذلك؟ اسـتخدمنا هذا السـؤال قبل ذلك من دون أن نسـتعمل عبـارة «بعـد الحادي عشر من أيلول» بالتحديد. إنه سـؤال جد واضح - ما الذي دهاني؟ ولكـن حينها وخزني رد فعل معاكـس. انتظر لحظة! نحن نتحدث هنا عن رئيس الولايات المتحدة! ما كان له أن يصل إلى رئاسة الولايات المتحدة من دون أن تكون له قدرة الإجابة علـى سؤال في غايـة البساطة. لقد تحدثنا عن الأخطاء؛ وتحدثنـا عن الحادي عشر من أيلـول. وتحدثنا عن غـزو العراق. لماذا لم يكن باستطاعته استحضار أي من تلك النقاط التي أثرناها؟ في كل تلك المدة التي كانت هذه المناظرة تدور في رأسي، استمر الرئيس في التلعثـم بينمـا كان بودي أن أصرخ بيأس كي ألقمه الجواب. استمر التلعثم للحظات بدت حينها أطول من ذلك بكثير.

أخيراً، خرج الرئيس علينا بجواب غير مترابط، وغير متناسق، وغير مقنع البتة على سؤال ديكرسون:

> كنـت سأغزو أفغانستان بالطريقـة نفسها التي غزونا فيها أفغانستان. حتى لو عرفـت حينها مـا أعرفه اليوم عن وجود مخـازن لأسلحة الدمـار الشامل، لكنت طلبـت إلى زعماء العالم مواجهة صدام حسـين. أود لفت أنظاركم إلى أنني أؤمن بأننـا سنكتشـف الحقيقـة حول الأسلحـة. ولهذا السبـب أرسلنـا إلى هناك بعثة مستقلـة. أتطلع إلى سماع الحقيقة حول أماكـن وجودها. من الممكن أنها ما تزال هنـاك. ويمكن أن تكون مخبـأة، تماماً مثل الخمسين طناً مـن غاز الأعصاب في مدجنة لتربية الديوك الرومية.

> أحـد الأشيـاء التي تحدث عنها تشـارلي ديلفر [أحد مفتشـي الأسلحة التابع لـلأمم المتحدة] أنه فوجئ بمستوى الرعب الذي وجده بين الناس الذين يتوقع أن يعرفوا مكان وجود الأسلحة، وخوفهم من الحديث عنها لأنهم لا يريدون التعرض للقتـل. هناك رعب ما يـزال معششاً في أرواح بعض الناس في العراق. فهم قلقون من احتمال تعرضهم للقتل ولذلك، فإنهم لن يتكلموا.

obeikandl.com

لكن الأمور ستنتهي إلى استقرار يا جون. سوف نكتشف الحقيقة حول الأسلحة في وقت ما، من المستقبل. ولكن حقيقة أنه كانت لديه المقدرة على صنع هذه الأسلحة يقلقني اليوم، بالنسبة نفسها التي كانت ستقلقني حينها. إنه شخص خطر. إنه شخص بالحقيقة - ليس بحوزته فقط أسلحة دمار شامل - السبب الذي يدعوني إلى قول ذلك بثقة هو أنه قام باستعمالها. وليس في ذهني أي مجال للشك أنه كان بوده لو استطاع أن يتسبب في الأذى لأمريكة، أو دفع أموال لبعض الناس كي يتسببوا في الأذى لأمريكة، أو تدريب بعض الناس كي يتسببوا في الأذى لأمريكة لأنه كان يكرهنا.

آمل أنني - لا أريد أن أبدو وكأنني لم ارتكب أي أخطاء. أنا متأكد من أنني ارتكبت بعضها. أنا لم - لقد حشرتني في الزاوية هنا، وربما لست سريعاً في المشي كما يجب، في محاولتي للخروج بالجواب المناسب[1].

وفي محاولة يائسة منه للخروج من هذا المأزق، التفت حوله، وعلامات الارتياح تبدو واضحة على محياه، طالباً الاستماع إلى سؤال آخر قائلاً: «نعم يا آن؟».

كانت مراقبة بوش وهو يتخبط في الإجابة على سؤال بسيط، كما شعرت أنا وكل من كان موجوداً في الغرفة، توحي بأنه لا يستطيع الفكاك مما ظن أن الصحافة ما زالت مصرة على انتزاعه منه: وهو الاعتراف بعد مرور سنة على ظهور الحقيقة، أن قراره بشن الحرب على العراق كان خطأ. لذلك، وبسبب عدم رغبته في القيام بمثل هذا الاعتراف، تحول جوابه إلى تعليل آخر للغزو بالرغم من أن هذا كان بالضبط عكس ما سأله ديكرسون.

وبينما كنا نخطو خارج القاعة الشرقية بعد انتهاء المؤتمر الصحفي محاولين اللحاق بالرئيس بسرعة، تبادلت مع بارتليت حديثاً هامساً. كان الرأي بيننا مشترك في أن إجابة الرئيس على سؤال ديكرسون لم تكن موفقة.

---

[1] اللغة المرتبكة في هذا الاقتباس، لا تعكس ارتباكاً في الترجمة، بل تلعثم الرئيس بوش كما صوره مؤلف الكتاب. (المترجم).

كان الرئيس بانتظارنا داخل المدخل الرئيس المؤدي إلى غرفة الطعام الرسمية غير المضاءة، وكانت ربطة عنقه منحلة الآن. الضوء الوحيد الذي دخل إلى الغرفة كان ينبعث من الشقوق الناجمة عن الأبواب الموارية، ومن الفتحتين اللتين تؤديان إلى الغرفة الحمراء المضاءة بإضاءة خافتة، وأيضاً من الفتحة الموجودة في غرفة طعام العائلة القديمة المجاورة.

كنا، دان وأنا نعرف ما هي الخطوة الثانية. إنها وقت نوم الرئيس؛ ولم يكن حينها معنياً بسماع تحليل نقدي عميق لأدائه مباشرة بعد خروجه من طنجرة الضغط الإعلامية. ولذلك بدأنا بإطناب الرئيس على استعماله للنبرة الصحيحة، وتمرير رسالته بشأن ما قامت به حكومته قبل الحادي عشر من أيلول من أجل محاربة الإرهاب، وما قامت به أيضاً بشأن العراق. ثم قام دان بالتطرق ببراعة إلى الجواب المرتبك للرئيس رداً على سؤال ديكرسون. كان علينا إثارة هذا الموضوع ضمن الوقت القليل الذي نعرف أنه كان لدينا من أجل لفت انتباه الرئيس.

قال بوش: «نعم، أنا أعرف. كنت أفكر طوال الوقت حول ما أرادوا أن ينتزعوه مني – القول بأن حربنا في العراق كانت خطأ. ولست مستعداً للإقرار بهذا. لقد كان القرار الصائب». كانت نبرته واثقة أكثر مما ينبغي، وهادئة، وغير نزقة. سمعته يؤكد هذا الموقف الحازم من صوابية قراره حتى في أحاديث عادية. شعر بكثير من الرضا عن أدائه في تلك الأمسية بالرغم من تعثره في الإجابة على سؤال ديكرسون.

قلت له: «شعرت أنك كنت على السكة الصحيحة عندما ذكرتَ كيف يمكن للمؤرخين أن يحكموا على قرارك عندما ينظرون إلى الماضي. كل ما كان يجب أن تضيفه هو أنك تخطط للتركيز على المستقبل».

وافق بوش قائلاً: «نعم، أنت محق. حسنٌ يا شباب، شكراً على ما قمتم به من عمل جيد»؛ اتجه بعدها نحو الزاوية بطريقته السريعة ليلحق برئيس الخدم الذي كان يوقف له المصعد إلى مسكنه الخاص في الطابق العلوي، وتبعه أحد العملاء السريين.

كانـت هناك العديد من المناسبات الأخـرى خاصة وعلنية دافع فيها الرئيس عن أهم قـرار اتخذته إدارتـه. ولكن قليلاً من تلك المناسبات ستبقـى في الذاكرة بالوضوح نفسه لتلـك التي حدثـت مساء البارحة. لقد أصبحت رمزاً لقائد غـير قادر على الاعتراف أنه أخطـأ في التقدير، وغير راغب في النضـوج في منصبه عبر تعلمه من أخطائه - لقد كان عناده أقوى من أن يسمح له بالتغير أو النضوج.

سمحـت لي معرفتـي الشخصية بجـورج بوش باستنتـاج بعض الأسبـاب التي تحول بينـه وبين الاعتراف بارتكاب خطأ جسيـم. أحد الأسباب كان خوفه من أن يبدو ضعيفاً؛ فالمسـؤول الأكثر ثقة بنفسه لا يتردد في الاعـتراف بإخفاقه، وفي الثقة بقدرة الناس على مسامحة أولئك الذين يطلبون التكفير عن أخطائهم ويظهرون جاهزيتهم للتغيير.

هنـاك سبـب آخر يتمثـل في الألم الشخصي الذي لا بـد وأن يعاني منه لـو كان عليه الاعـتراف أن الحـرب ضد صدام ربما كانت غير ضرورية. لقـد كان ذلك صعباً على أيٍّ كان، أقلهم الرئيس، مواجهة فكرة أن قراره كان خاطئاً.

لـو اختـار إصدار بيان صـادق حول الحقائق لكان أجدى لـه - من مثل «نحن نعرف أن صـدام لم يكن يمثل ذلـك التهديد الذي كنا نعتقده. ومع ذلـك، كانت الحرب عادلة ومسوغـه. كان صـدام ديكتاتوراً متوحشـاً، ارتكب العديد من الجرائم ضـد الإنسانية. كانت أمامه فرصة كي يتغير، إلا أنه اختار المواجهة. المهم الآن، هو أن نتابع العمل سوية والسير في طريق نحو الأمام نجمع عليها باتجاه نهاية ناجحة - نهاية نتفق عليها جميعاً. هـذه هي الطريقة التـي نستطيع بواسطتها، نحن في داخل الوطن، خدمة قواتنا المسلحة التـي تقاتل خارج الحـدود، واحترام التضحيـات التي قدمها العديد منهـم وما يزالون يقدمونها».

ولكـن بوش ليس ذلك الشخص الذي ينظر إلى الخلـف بعد أن يكون قد اتخذ قراره. فبدلاً من أن يعاني من أي إحساس بالذنب أو الألم، اختار بوش أن لا يسير باتجاه التشكيك فيمـا قام به، أو اتخاذ القـرار الصعب بإجراء مراجعة للذات وتقـويم صادق لما قام به. وبـدلاً من النظر إلى الخلف، اختار النظـر إلى الأمام مركزاً على تحديات المستقبل بدلاً

مـن الندم على الماضي. كان هذا الأمر صحيحـاً بشكل خاص عندما تعلق بقرار لا يمكن العودة عنه، وله عواقبه الخاصة، مثل قرار الحرب في العراق.

ولكن بين الحين والآخر، لم يكن هناك مفر لبوش من مواجهة هذه الشكوك. كان يؤمن بـأن واحدة من أهم مسؤولياتـه بوصفه رئيساً في زمن الحرب عيادة الجرحى والتخفيف مـن معاناة أسـر القتلى. كان يفعـل ذلك غالباً سـواء في واشنطن أم خـلال تنقلاته في البلاد. كنت ألازمه كظله في تلك المناسبات.

زار الجرحـى في مركـز «والتر ريـد آرمي» الطبي عـدداً من المـرات. كان من الملهب للمشاعـر الاطلاع عن كثب على معنويات وشجاعة أولئـك الذين قدموا تضحيات جسام – بـدءاً من الذين عانوا من جروح رضية في رؤوسهـم وانتهاء بمن فقدوا أطرافهم. أراد معظمهـم العـودة إلى العراق والانضمام مجـدداً إلى رفاقهم بالرغم مـن أن إصاباتهم كانـت تقف حائلاً دون تحقيق رغباتهم. من المحمود أن التقدم الطبي الحديث قادر على إنقـاذ حيـاة أعداد أكبر ممـا كان عليه الأمر في الحـروب الماضية. إحـدى أكثر الصور التـي رسخت في ذاكرتي التقطت أثناء واحدة من زيارات الرئيس إلى مركز «والتر ريد». كان يتنقـل بين غرفة وأخرى، وهو يعود الجنود المصابـين. دخلت إلى إحدى هذه الغرف قبله مباشرة ووقفت في الممر. كانت الإنارة في الغرفة ضعيفة. كانت أم شابة من تكساس وابنهـا البالغ من العمر سبـع سنوات جالسين بجانب الـزوج والأب. كان يجلس في مقعد متحـرك من دون حـراك. كان رأسه مغطـى بالشاش الأبيض وبضمادة مـن أعلى رأسه نـزولاً باتجـاه عينيه. وكان واضحـاً أنه لم يكن يعي مـا يجري من حولـه؛ كانت الإصابة الدماغية التي يعاني منها شديدة.

دخـل الرئيـس إلى الغرفة بعدي مباشرة. مشى باتجـاه الأم وعانقها، ثم وضع يده علـى كتف الصبي وقال له: «والـدك رجل شجاع جداً». عند انتهـاء الزيارة القصيرة تلـك، التفـت بوش إلى الجنـدي ووضع يده بلطـف على الكرسي المتحـرك، ثم انحنى وقبّل أعلى رأسه قبل أن يهمس في أذنه: «ليباركك الرب». استدار بعدها ومشى باتجاه الباب في طريقه إلى الخارج. رفع يده اليمنى وهو ينظر إلى الأمام، ومسح دمعة طفرت

مـن عينه. في تلك اللحظة، كان بإمكاني رؤيـة الشك في عينيه وإدراكه استحالة تغيير النتائج الناجمة عن قراره.

رأيـت الرئيـس مرات عديدة يدخل إلى الغرفـة أو إلى المنطقة التي تجتمع فيها عائلة أحـد المصابـين. كان يعانق الأم أو الزوجة. كان يرافقهم بحضـور الآباء والأولاد ويستمع إليهم وهم يروون قصصاً عن أحبائهم. غالباً ما كانت تلتفت إحدى الأمهات إلى الرئيس وتقول، «إنهِ المهمة. وتأكد من أن ابني لم يمت سدى».

كانـت هذه الزيـارات ذات أثر في زيادة عـزم الرئيس على إنهاء المهمـة بنجاح - أي التقـدم نحو الأمام. وهكذا، تحول التشكيك العابر في نهاية المطاف، إلى سبب آخر يزيد من تصميمه الذي لا يتزعزع على متابعة ما بدأه.

بالإضافة إلى ذلك، كان هناك سبب آخر دفع بوش إلى تجنب الإقرار بالأخطاء ألا وهو تصميمه على الفوز باللعبة السياسية بأي ثمن. لم يكن بوش مستعداً لمنح وسائل الإعلام التابعـة للمؤسسة السياسيـة في واشنطن أي شيء يمكن للنقـاد أن يستخدمونه لتدميره وتدمـير جهوده التـي يبذلها من أجل إعـادة انتخابه. كان يعرف أنـه في المناخ السياسي الـدارج هـذه الأيام، لو حـدث واعترف بارتكاب خطـأ حول موضوع لـه عواقبه الخاصة مثـل قرار خوض الحرب، فـإن منتقديه الحزبيين سوف ينتهزون هـذه الفرصة لتمزيقه إربـاً إرباً. ربما لم يكن مخطئاً حول هـذه النقطة، لكنني أؤمن أن اختيار مبدأ الصراحة والصدق كان يمكن أن يساعده في التكفير عن هذا الخطأ، والارتقاء فوق الروح الحزبية، وجمـع قادة الحزبـين بهدف الاتفاق على إجماع حول العراق. ربمـا لا يكون هذا الإجماع مطابقـاً لأهداف بوش، أو للطريقة التي يفضلها من أجل تحقيق نتائج ناجحة، لكنه كان سيخدم بلادنا وأولئك الذين طلب إليهم الدفاع عنها بصورة أفضل بكثير.

أخيراً، كان هناك إصرار بوش على استمرار الالتزام بقاعدته الانتخابية. وكان القلق الـذي سـاوره من تكرار أخطاء والـده السياسية، يثير الخوف لديه مـن أن تبدأ قاعدته المحافظـة بالتصـدع لو ظهـر وكأنه يتراجع عـن التزاماته في العـراق. كان بوش وروف

يعتقـدان أن القاعـدة تريد قائـداً قوياً وحاسماً وثابتـاً بشأن آرائـه ومعتقداته أكثر من أي شـيء آخر. وطالمـا أن التشبث بالقاعدة الانتخابية والمحافظـة على قوة الزخم فيها يشكلان ضـرورة مطلقة من وجهة نظرهما، فإن تردد بوش في الإقرار بالخطأ كان على الأقل مفهوماً - ولو أنه لم يكن حكيماً.

بالنسبـة إلى بوش ومستشاريه (وعلى الأخص، كارل روف)، فإن الانفتاح والصراحة في مثـل هذه الظروف يعنيان فتح باب المتاعـب. وربما كانوا محقين في ذلك - على المدى القصـير. أما على المدى الطويـل، فإن عجز الرئيس عن مواجهـة واقع قراراته الخاصة كمـا حدث في تلك اللحظة المربكة في المؤتمـر الصحفي، سيتحول إلى حاجز يكبر حجمه باطـراد بينه وبين الشعب الأمريكي. وسيؤدي أيضـاً إلى تدمير أي فرصة متبقية للتعاون الحزبـي، وإلى استعـار أوار الحـرب الحزبية التي ستشـل واشنطن والنظـام السياسي الأمريكي - وهذا كله سيحدث بينما كان بإمكان أولادنا وبناتنا العسكريين الذين يقاتلون خارج الحدود الحصول على عكس ذلك من واشنطن.

ولكـن في شهـر أيـار، مايو، سنـة 2004، كان بوش وروف يركزان علـى المكاسب على المـدى القصير - أي الانتخابات التي كانت ستجري في الخريف. قطع الرئيس وعداً على نفسـه بإنجاز ما أخفـق والده في إنجازه، أي الفوز بولاية ثانيـة. وكان هذا يعني أن عليه العمل بشكل مستمر ضمن إطار الحملة الانتخابية: لا تشرح شيئاً، ولا تعتذر عن شيء، ولا تنسحب من أي مواجهة. لسوء الحظ، كانت لهذه الإستراتيجية مثالبها وآثارها السلبية، لا تَعد بذاكرتك إلى الماضي، لا تُعد النظر في أي شيء، ولا تقبل بالحلول الوسط؛ خصوصاً إذا كان الأمر يتعلق بالعراق.

كان خطـأ بوش الخطير الأول يتمثل في الإسراع باتجـاه مواجهة عسكرية مع العراق. لقد حرفت رئاسته عن مسارها وأساءت إلى حد كبير إلى نظرة الاحترام التي كان الناس يرمقونـه بها. وكان خطؤه الخطـير الثاني يتمثل في تعاميه عن خطئـه الأول، وفي رفضه المحافظـة على روحية الثنائيـة الحزبية خلال زمن الحرب، ورفضـه أيضاً تغيير مساره عندما تطلبت الأحداث ذلك.

أتصـور أن آرائـي حول العراق تحولـت بشكل متزامن مـع آراء معظم الأمريكيين. فقبل الغزو، لم أكن متأكداً من ضرورة شن حرب استباقية جديدة. العديد من الناس يحبـذون فكـرة الذهاب إلى الحرب. بالطبع إذا هوجمنـا، علينا الرد بحزم. الأمر في العـراق كان مختلفـاً. فلـم يكن هناك هجـوم وشيك، ولم يعرف عن العـراق أن له أي علاقـة بالهجوم على أمريكة (باستثناء إطلاق النـار على طائراتنا في منطقة الحظر الجوي)، ولم يكن التهديد ملحاً.

لكـن أحداث الحـادي عشر من شهر أيلـول أثرت على طريقة تفكيرنـا بشكل عميق. كان الإحساس بالصدمـة والغضب الذي مررنا به قد جعل العديـد منا يأخذ على نفسه عهـداً بالانتقـام ممـن قامـوا بتنفيذ هـذه الهجمات بـأي طريقة ممكنـة. كان نجاحنا العسكـري السريع في قلـب نظام حكم طالبان في أفغانستان قد عـزز من الدعم الشعبي للرئيس ولإدارته. وكانت الثقـة في بوش ومستشاريه الذين نجحـوا في هذا الامتحان في أعلى مستوى لها، ومن ثم فقد مال الناس إلى تأييد رؤيتهم السياسية.

كنـت جزءاً من هـذا الميل. فكوني موالياً مـن تكساس، لحق بالرئيس إلى واشنطن يحدوني أمل كبير، ويغمرني شعور بالود الشخصي تجاهه، ونظراً لكوني أفتخر بعضويتي في فريقه، كنت جاهزاً لمنحه هو ومستشاريه للشؤون الخارجية الذين يتمتعون بالكثير من الخـبرة كل الثقة فيما يتعلق بالعراق. لكن، لسوء الحـظ، أظهرت التطورات اللاحقة أن رغبتنا في منح الثقة لحكمة بوش وفريقه لم تكن في محلها.

ربمـا ما تزال آرائي اليوم في نفس مسار آراء معظـم الأمريكيين. وبالرغم من أنني أجـبرت على الاستنتاج بأنه لم يكن علينا أبداً الإسراع في المبادرة إلى الحرب في المقام الأول، فقـد كنـت أتمنى أن ننجح في هذه الحرب. لكن يجـب الاتفاق على وضع تعريف لعبارة النجاح بواسطة إجماع بين قادة الحزبين الذين يركزون على القيام بما هو أفضل للأمة. من الواضح أن قواتنا المسلحة موجودة هناك منذ مدة طويلة، وهي مطالبة، كما عائـلات أفـراد هذه القوات، بـأن تتحمل أكثر مـا يمكن لها تحمله بكثـير. يجب علينا إيجـاد طريقـة - اليوم قبل الغد - لتقليص عدد قواتنـا هناك بصورة ملحوظة في قلب

العراق بحيث تستطيع قواتنا التركيز على نشاط الإرهابيين، وعلى الانتشار السريع من أجل مساعدة العراقيين عند الضرورة. القلق الذي ينتابني هو نوع القلق نفسه الذي ينتاب معظم الأمريكيين. ما هي نهاية اللعبة؟ أين الضوء في نهاية النفق؟ إذا كانت هناك حاجة إلى مساعدة خارجية أكبر، فإن علينا بناء نوع أشمل وأكبر من التحالف، ربما يكون ذلك تحت مظلة الأمم المتحدة، ربما عبر تحالف مع القوى الإقليمية بحيث تتحمل الدول الأخرى جزءاً من هذا العبء.

هل يمكن لمثل هذا الحل أن يتحقق في هذا الوقت المتأخر، مع فقدان الكثير من الأرواح وهدر الكثير من الأموال؟ آمل أن يتم ذلك. إلا أنه من المحزن أن شيئاً من هذا ربما لن يحدث أبداً في عهد هذا الرئيس. فقد تضررت مصداقيته في كل من أمريكة وحول العالم بسبب رفضه الحديث بصدق عن حربه، وعن كلف هذه الحرب. كل ما يستطيع فعله الآن هو تجهيز ملف هذه الأزمة، وتسليمه إلى خَلفه.

لم يكن للأمر أن يصل إلى هذا الحد؛ فحتى بعد وقوع الخطأ الأول المتمثل في الإسراع بالتوجه إلى الحرب في العراق، لم تكن الحال قد وصلت إلى وضع ميئوس منه بعد. ولكن أحداً من دائرة الرئيس الضيقة - بمن فيهم أنا - لم يكن يمتلك من الحكمة أو الشجاعة المقدار الكافي كي يحثه ليكون أكثر انفتاحاً وصدقاً مع الشعب الأمريكي.

بدلاً من ذلك، فعلى امتداد سنتي 2003 و2004، وبينما كانت الأخبار السيئة ترد من العراق، كان الرئيس وكبار مستشاريه متشبثين بالاعتقاد أن الحرب التي ارتهن رئاسته لها سوف تصل إلى نهاية سعيدة. وفي الوقت الذي كانت الأخبار السيئة ترشح ببطء من العراق قبل أن تتحول إلى سيل جارف، كان الرئيس يصر على آرائه.

في شهر أيار، مايو، سنة 2004، ظهرت إلى العلن الصور المريعة من سجن أبو غريب ملطخة بالعار الكثير من الأمريكيين، ومسببة إحساساً بالغثيان في كل أنحاء العالم وهو ما أدى إلى إلحاق أضرار كبيرة بجهودنا الرامية إلى كسب قلوب وعقول شعوب العالم الإسلامي.

وفي الوقت الذي ازدادت أعداد القتلى والجرحى في صفوف الجيش الأمريكي إلى درجة أبعد بكثير مما كان متوقعاً (وصل عدد القتلى إلى ألف من الجنود قبل الانتخابات بفترة قريبة)، كنت أراقب الرئيس وهو يمسك بالرقم المؤلم بقوة وبشكل شخصي أثناء تلك الزيارات الخاصة التي كان يقوم بها إلى المستشفيات، واللقاءات التي يجريها مع عائلات المصابين. وبالطريقة نفسها التي تحولت فيها الحرب في فيتنام إلى هاجس بالنسبة إلى إدارتين متلاحقتين منذ أربعة عقود، تحول العراق إلى هاجس بالنسبة إلى مؤسسة رئاسة جورج بوش، وإلى جورج بوش شخصياً. كنت أرى المرة تلو الأخرى كيف كان منظر جندي محارب يعاني من جراح خطيرة في المعركة، أو صورة زوجة، أو ابن جندي شاب يعرفان أنه لن يعود إليهما أبداً، يسبب لبوش ألماً شخصياً وحزناً عميقين. لكن ردة الفعل التي لا يمكن لبوش أن يسمح لنفسه أن يشعر بها، كانت التشكيك في نفسه وصحة دوافعه. كانت اللحظات المؤلمة التي قضاها محاولاً التخفيف من حدة آلام من فقدوا أحباءهم في العراق - الخسائر التي وقعت تسبب بها في النهاية، قرار بوش بالذهاب إلى الحرب - تزيد من تصميمه على إثبات أن خياره المتمثل في القيام بغزو العراق كان الخيار الصحيح، وأن تضحياتهم قد تمت من أجل هدف نبيل.

كانت هناك لحظات من الأمل ممزوجة باليأس. كان نقل السيادة بشكل رسمي إلى حكومة عراقية انتقالية في الثامن والعشرين من شهر حزيران، يونيو، سنة 2004 عاملاً مساعداً في تعويم معنويات الشعب الأمريكي. وكان هذا النقل بمثابة ترجمة عاطفية لمنطق بوش في غزو العراق - ألا وهو نشر الديمقراطية في الشرق الأوسط - وزاد في الأمل أنه بالرغم من الزيادة في معدل الخسائر، فإن الحرب في العراق سوف تثبت أنها حرب عادلة ومعللة في أعين المؤرخين.

وبينما انطلقت الحملة الانتخابية سنة 2004، ومعها الجو الحزبي المتشنج الذي أضحى نموذجاً للسنة الانتخابية بالمعيار الوطني، اتخذت بعض القضايا مواقعها تحت الضوء، بما في ذلك الاقتصاد، ولجنة التحقيق بشأن أحداث الحادي عشر من أيلول،

والجدل العنيف الدائر حول خدمة بوش في الحرس الوطني في سبعينيات القرن الماضي، والنقاش حول خطة بوش لتقديم تغطية للوصفات الطبية للمسنين المستفيدين من الرعاية الصحية.

لكن ثلاثاً من القضايا الجوهرية في قلب الحوار الدائر بشأن العراق استمرت في ملاحقة بوش ورئاسته: هل كان المنطق الذي استند إليه بوش في شنه الحرب على العراق مضللاً بشكل متعمد؟ هل كان قرار الحرب على العراق صحيحاً، أو يستحق كل هذا العناء؟ هل كانت معالجة الإدارة للوضع على الأرض مقنعة أو مرضية؟ كانت معركة الحملة الدائمة للسيطرة على الرأي العام، وصياغةِ سرديةٍ تصب في مصلحتنا حول كل واحدة من هذه الموضوعات الثلاثة ستلعب دوراً حاسماً في تقرير نتائج الانتخابات.

obeikandl.com